

غادة بابل

La Belle de Babylone.

٨

لم تجد نفعا الرقى والطلاسم والتعازيم وندامة الألب بل كانت حال المريضة تزداد حرجا وأصبحت على قلب قوسين من النزح فارتأى أهلها أن ينقلوها من البيت إلى الخارج ويمرضوها على أنظار المارة لكي يصف لها من يراها تعويذة فعالة أو دواء ناسعا مجربا فحملوها على فراشها ووضعوها عند باب دارها . فتكاثرا عليها المارة وأخذ كل واحد يصف لها وصفة من تعاويذ وعقاقير جربها في حادث حدث له في زمن مضى (١) ثم يأتي غيرهم ويسفهبون آراء من سبقهم ويقولون أن رقية الآلهة الفلاني هي بره الساعة مع العقاقير التي يسردون اسمائها .

ثم أتى واحد وأخبرهم أن « آسو » (٢) أتى من مصر وهو عالم بمداواة المرضى فدير أن يشفي اعضل الأمراض (٣) . عمل الآهل كل الوصفات والرقى واستقنموا « الآسو » فلم تنجح به المريضة حيلة بل اشتدت على حترآء الآلام وارتفعت حرارة الحمى فأسلمت الروح بعد غياب الشمس .



أطلقت النائمات أصوات الويل والنبور وأرسلت النساء شعور رؤوسهن

(١) هيرودوتس ١: ١٩٧.

(٢) كان البابليون يطلقون كلمة « آسو » على الطبيب وهي كلمة « الآسي » العربية وهذا من أصل واحد ولهما معنى واحد .

(٣) كان يذهب الأطباء من بابل ومصر إلى بعض الاقطار أو من أحد هذين القطرين إلى الآخر . لأن بابل ومصر كانتا منبت الحضارة البائدة . وجاء في أخبار الحثيين . أن طبيباً وسامرا ذهباً من بابل إلى بلاد الحثيين . وسكان الطب آنشد والسمرسون . راجع

L. W. King : A History of Babylon: 240, No 1.

والقين التراب والرماد على هامانين ولطمن الخنود بالأيدي وخشنها بالاطاير .
 واشترك بهذا المأتم العبيد والعبدات ثم اتت الجارات وانضممن الى المحفل (١).
 اشتغل الاهل والاقرباء والجارات بالمرائي واللطم وعهدوا بجثة حترآء
 الى نساء دأبين تجهيز الموتى والسهر على اجسامهم قبل الدفن . فدهنها بزيت معطر
 والبسبها اجمل ثيابها وافخرها وزينها بالحلي الغالية الثمينة . ووضعن قرطي ذهب
 في اذنيها وقلادة نفيسة في عنقها هي خرز من العقيق واللازورد والذهب منظومة
 في سلك . واساور في معصمها وخواتم وحلقات في اصابعها وحجلين في رجلها
 ومشطا من ذهب في شعرها وحرن وجنتها بالحمره ودهنها بالدهون وصبغن
 اهدابها واطراف عينيها بالزرقه . ثم اضعفنها على فراش وثير وأطبغن ذراعها
 على صدرها . ثم نصبن مذبحا عند رأسها لقرايين الماء والبخور والحلويات واخفن
 تماثيل الواحد عند رأسها والاخر عند قدميها يمثل احدهما صورة «ايا» والاخر
 شيها «بايا» وعلى كل منهما جلد سمكة . وقد مدا ايديهما على جثة حترآء . ووضعن
 ثلاثة تماثيل اخرى في غرفة المائنة احدهما بصورة انسان والاثنان الاخران
 رأسهما رأس اسد وجسدتهما جسد انسان .

والغاية من هذه التماثيل منع الارواح الخبيثة من دخول غرفة الميتة وتقمصها
 بصورة عفريت يمتص بعدئذ دم الاحياء .

وتوضع كذلك تماثيل الآلهة فوق سطح البيت لمنع تلك الارواح الشريرة
 من الهبوط من السقف .

وتقام الصلوات والادعية استدعاء للارواح الصالحة للسهر على جثة المتوفاه (٢).
 اهتم بعض اقاربها بانتقاء تربة شريفة يودعونها جثمانها . فمنهم من ارتأى
 نقلها الى اورك . تلك المدينة المقدسة في جنوبي بابل التي تنقل الى مقابرها
 اجسام الموتى من جميع المدن البابلية للتبرك بقداصة تراها لانها مدينة العلم والدين
 (١) كثيرا ما يرى القارئ بعض العادات في هذه الرواية تضاهي المادات الشائعة اليوم
 في العراق او عند بعض الطبقات من سكان هذه الديار فلا نظن انها لم تكن عند البابليين
 بل ان كل ما يقرأ هنا مستند الى ما كان جاريا عندهم .

(2) G. Maspero: Au Temps de Ramsès et d'Assourbanipal. 270 - 71.

والكهنة والملوك (١) .

ومنهم من ارتأى دفنها في مقبرة البيت القديمة في دار السكنى عنها حيث
قبر بعض اجدادها في زمان كان البابليون يدفنون موتاهم به بيوتهم .
إلا ان ابائها لم يوافق على الرأيين بل رغب في دفنها في المدفن الذي قبرت
فيه امها لتكون الى جانب تلك التي حنت عليها به صغرها .

حلوا الجنائزة من بينها بين النوح والبكا . والطعم تنقسمها الناضعات والمزقات
ويتبعها جوق منها وكان معها اهلها واصدقاؤهم ومعارفهم مرتدين شباب الحداد
من نسيج غليظ كمد ليس فيه ثيابا ولا طيات بل يشبه كيسا . واخذوها الى
احدى المقابر به ضواحي المدينة ووضعوها في تابوت على هيئة حب وهو متخذ
من الطين المشوي من قطعتين . واحدى القطعتين هي غطاء الحب . ولحموا
القطعتين بالقار وفي طرف الحب او التابوت ثقب صغير تخرج منه الروائح التي
تنبعث من الجثة عند انحلالها .

وكانت توضع الجثة في التابوت وضعا يوافق معتقداتهم الدينية فalcوا الرأس
على آجرة افوها بقطعة مطرزة من النسيج وفيها اهداب ذهبية . وتركوا
التابوت في مشكاة معقودة في جدار القبر وجعلوا في القبر حلالها وادوات الزينة
وعلب الحمرة والحضاب واصباغ الوجه واواني العطر واقداحا واكوابا وبعض
امتعة البيت وشيئا من الطعام الذي كانت مولعة به به حياتها ونعرا وجرة ماء
وازهارا ومسرجة . وبعض تماثيل ونقوش محفورة على حجر وصخر وعلى قطع
صغيرة من البلور الصخري والجزع واليصب وحجر الحية وحجر النمل والعقيق
والياور . فكانت هذه الامور تقدمات خالدة للالهة تفوق التفععات البالية منزلة
وقبرا او تعاويذ تصد الارواح الشريرة عن اذى الراقد او الراقدة .

رجع المشيعون واخذ بعضهم يتحدث عن سرعة زوال الحياتقوع من انتفى تلك
الشابة الحسنة الى « الارض التي لادعوة منها » الى « قعر الظلمة » الى « دار البلى »
الى « مملكة الاموات العظيمة » التي تسود فيها « اللات » ملكة الموتى . الى الـ « اولو »

(٢) Loftus: Chaldéa & Susiana. ويوسف غنيمه : محاضرات في تاريخ

ذي السبعة الأبواب للداخلين فيه وعلى تلك الأبواب حراس يمنعون من يحاول الخروج منه لا ينفذ اليه نور الشمس وانما تبعث منهم أحيانا آلهة الموتى «اللات» بعثة خاصة الى الأرض لازى الأحياء لاياً كلون في الأرواح إلا الحمى المسنون ولا يلبسون إلا ريش طيور الليل الأدكن ومملكة الموتى «اللات» او ارشكيكل إلا الآلهة للانتقام ، الأربة البطش والفنك بالأحياء ، إلا سيدة مطلقة عنان القسوة والشكاسة والشراسة تعامل الموتى معاملة فظة مهما كانت سيرتهم في الحياة صالحة او طالحة فهم في عينها سواء ، تكيل لهم العذاب جزاؤا ويهيبهم قبح منظرها وسماجة تمثيلها وهي امرأة زباء مشوهة الحلقة متخاذلة الأعضاء وجهها وجه لبوءة كشرية عن أنيابها . ولها اجنحة واكف طائر جارح . وتهز بكل من يديها حية عظيمة كالحرية تطن بها علوها وتسمه بلا رافة . وولداها اسدان ترضعها من جسمها . تسير في مملكتها وقوفا او ركوعا على ظهر حصان يروح تحت ثقلها وتسحقه سحقا وفي بعض الاوقات تنهب بنفسها لتفتقد النهر المتحدر من عالم الأحياء فتركب وحصانها مركبا جنيا يبحر بلا شراع ولا مجداف ينتهي مقدمه بمنقار طائر وكؤله برأس تور .

فهذه الآلهة المسيطرة على الكائنات مهيمنة في دولتها مستقلة في ادارتها لا يتدخل في شؤونها اي قدير كن . حتى ان الآلهة ان شئت الدخول الى تلك المملكة تمنع لوامر ملكتها وتصنع من رعاياها الاموات . اما قريتها فرجل فتوتها في السلطة في تلك المملكة . ولها جند يفتنون اوامرهم ومنهم «الطاعون» و«الحمى» وغيرها . مسكنة حترآ . لقد قضت أيامها ودحات أقطار الهاوية فهل لها ان ترضى «اللات» لتضجها جرعة ماء من «نبوع الحياة» ذلك ينبوع الواقع عند عتبة الأرواح الذي يعيد ماؤة الحياة الى الموتى . ولكن كيف الوصول اليه وحراسه موكولة الى ارواح الأرض السبع — هي سبع — سبع هي — في جفرة الهاوية هي سبع لاهي ذكور ولاهي أناث ، لكنها تنتشر كالتيارات — لاتتخذ نساء ولا تلد اولادا ابدا . لاتعرف الرافة والاحسان — لاتسمع الصلوات ولا الادمية — تكثر الحقن في الجبال هي اعداء «ايا» هي رسل الموت وعمال «اللات» .

هذه هي الأفكار والمعتقدات التي كان يرددها المشيعون الأغرار إلا ان المفكرين منهم كانوا قد ارتقوا الى تصور جنة تجري فيها الأنهار وتظلها الأشجار يدخل فيها الصالحون والصالحات وهي مئوى الالهة في قمة «جبل العالم» لابل ان الأبرار والفضلاء يستقبلهم الالهة في جنتهم ويؤهلونهم . وبهذا الرجا . كان ابو حنراء يعزي نفسه ويتوقع رؤية ابنه في تلك الجنة على قمة «جبل العالم» (١) .

يوسف غنيمه

اصل السدلى او السدير . Sidillâ ou Sédîr.

في تاج العروس في مادة من دل : السدلى كزمكى ، معرب . واصله بالفارسية قد له كانه ثلاثة بيوت كالخاري بكمين . كما في العباب واللسان . الا . فكتب الواقف على طبعه : قوله « كالخاري » كذا بخطه كاللسان فظهر من قوله هذا انه لم يفهم كالخاري وصاحب « البستان » لم يذكر هذه الكلمة في معجمه ولا ندري السبب مع ان الذين نقل عنهم ذكروها وان لم يشرحوها .

قلنا : معنى الخاري : التوب المصنوع في الحيرة . وهي نسبة شاذة الى الحيرة ، المدينة المشهورة في العراق . واما الكلمتان الفارسيستان فليستا « سهوله » بل « سه دير » ومعناها البيوت الثلاثة فعنى « سه » ثلاثة ، ومعنى « دير » البيت المعقود عليه قبة او جنبة كما يقول بعض رزاة السلف نقلا عن الفرس المنقرضين . ولهذا نرى بعض الاقدمين عرب « السدلى » بصورة ثانية وهي « السدير » . ومنه اسم القصر الذي بناه في الحيرة آل المنور . وكان فيه ثلاث قبة متداخلات وقد غلط صاحب التاج في مادة سدر اذ يقول انه معرب عن « سه در » اي ذو ثلاثة ابواب . والصواب ما اوردناه نقلا عن المحققين . وفي فرصة اخرى ، نذكر كيفية ذلك البناء الشهير .

(1) M. Jastrow : Hebrew & Babylonian Traditions : pp 196 — 253 .

M. Jastrow : The Civilization of Babylonia & Assyria - P 280.

G. Maspero : Au Temps de Ramsès et d'Assourbanipal. pp. 279 - 282 .

Z. A. Ragozin : Chaldéa : 154 - 157 & 326 - 330.